الشيخ أبو بكر محمود غومي ومنهجه في تجديد الحركة العلمية وإصلاح الخطاب الديني والاجتماعي في نيجيريا المعاصرة: دراسة تحليلية.

صدّيـــــق عـيسى صدّيـــــق
lysasiddiq@gmail.com

مـــــــلخص البحـــــــــث

يتناول هذا البحث دراسةً تحليليةً لمنهج الشيخ أبي بكر محمود غومي (1922–1992م) في تجديد الحركة العلمية وإصلاح الخطاب الديني والاجتماعي في نيجيريا المعاصرة، في ظل التحولات الفكرية والسياسية التي عرفها المجتمع النيجيري خلال القرن العشرين، ولا سيما آثار الاستعمار والتحديات الحضارية المصاحبة له. وينطلق البحث من إشكالية رئيسة مفادها: كيف أسهم الشيخ أبو بكر محمود غومي في إعادة توجيه الحركة العلمية الإسلامية وتصحيح الخطاب الديني بما يستجيب لحاجات المجتمع النيجيري المعاصر؟

ويهدف الباحث إلى إبراز ملامح المشروع الإصلاحي للشيخ، وتحليل جهوده في محاربة البدع والخرافات، وترسيخ منهج العودة إلى الكتاب والسنة، إضافة إلى بيان دوره في تطوير التعليم الإسلامي، وتنشيط الوعي الديني والاجتماعي لدى مختلف فئات المجتمع. كما يسعى البحث إلى تقويم أثر فكره الدعوي والإصلاحي في تشكيل الخطاب الإسلامي المعاصر في نيجيريا.

واعتمد البحث على المنهج التاريخي في تتبّع سيرة الشيخ العلمية والدعوية، والمنهج التحليلي في دراسة أفكاره الإصلاحية ومواقفه الفكرية، إلى جانب المنهج الوصفي في رصد انعكاس جهوده على الواقع الديني والاجتماعي. وتوصل البحث إلى أن الشيخ أبا بكر محمود غومي شكّل علامة فارقة في مسار الإصلاح الإسلامي في نيجيريا، وأسهم إسهاماً بارزاً في تجديد الحركة العلمية وبناء خطاب ديني واعٍ، لا تزال آثاره الفكرية والدعوية حاضرة في المجتمع النيجيري إلى اليوم.

المقـــــــدمـــــــة

شهدت نيجيريا منذ دخول الإسلام إليها تحولاتٍ علميةً ودعويةً متدرّجة، ارتبطت بجهود العلماء والدعاة الذين اضطلعوا بمهمة نشر العلم الشرعي وترسيخ القيم الإسلامية في مختلف مناطق البلاد. وقد تم هذا الانتشار في سياق تاريخي اتسم بالتفاعل الثقافي والاجتماعي، حيث شكّل العلماء حلقة

الوصل بين التعاليم الإسلامية وواقع المجتمع، فأسهموا في بناء منظومة دينية وتعليمية كان لها أثر بالغ في تشكيل الهوية الإسلامية للمجتمع النيجيري.

غير أنّ هذه الحركة العلمية والدعوية لم تخلُ من تحديات عميقة، لا سيما مع تعاقب المراحل التاريخية المختلفة، وبخاصة خلال فترة الاستعمار الأوروبي وما أعقبها من تحولات سياسية واجتماعية وثقافية. فقد أفرزت تلك المرحلة إشكالات فكرية ودينية تمثلت في ضعف التعليم الإسلامي المنهجي، وانتشار الجهل بكثير من تعاليم الإسلام الصحيحة، وتغلغل بعض البدع والخرافات في الممارسات الدينية، فضلًا عن تأثر الخطاب الديني بواقعٍ جديدٍ لم يكن مهيأً للتعامل معه بفعالية. كما أسهمت السياسات الاستعمارية في إضعاف المؤسسات التعليمية الإسلامية التقليدية، مما أدى إلى خلل في منظومة التكوين العلمي والدعوي.
وفي ظل هذه التحديات، برزت الحاجة الملحّة إلى خطاب ديني إصلاحي قادر على استعادة دور العلم الشرعي في توجيه المجتمع، وتصحيح المفاهيم العقدية، وربط الدين بواقع الناس وهمومهم اليومية. وفي هذا السياق، ظهر الشيخ أبو بكر محمود غومي (1922–1992م) بوصفه أحد أبرز روّاد الإصلاح الديني والفكري في نيجيريا خلال القرن العشرين، حيث اضطلع بدور محوري في تجديد الحركة العلمية، وإعادة الاعتبار لمنهج الاستدلال بالكتاب والسنة، ونقد الممارسات الدينية التي لا تستند إلى أصول شرعية صحيحة.

وقد تميز المشروع الإصلاحي للشيخ أبي بكر محمود غومي بالشمول والعمق، إذ لم يقتصر على الجانب العقدي أو الوعظي فحسب، بل امتد ليشمل إصلاح التعليم الإسلامي، وتنشيط الوعي الديني والاجتماعي، والدعوة إلى فهمٍ واعٍ للإسلام يتجاوز الجمود والتقليد الأعمى. كما سعى إلى بناء خطاب ديني قادر على التفاعل مع قضايا المجتمع النيجيري المعاصر، سواء في بعدها الاجتماعي أو الثقافي أو الفكري، مع التأكيد على دور العلماء في قيادة الإصلاح والتغيير الإيجابي.

ومن هنا، تبرز أهمية دراسة منهج الشيخ أبي بكر محمود غومي في تجديد الحركة العلمية والخطاب الاجتماعي، باعتباره نموذجًا إصلاحيًا معاصرًا أسهم في إعادة تشكيل المشهد الديني في نيجيريا. ويأتي هذا البحث محاولةً علميةً لتحليل الأسس الفكرية والمنهجية التي قام عليها مشروعه الإصلاحي، وبيان مدى تأثيره في الواقع النيجيري، مع الوقوف على إسهاماته في مواجهة التحديات الفكرية والدينية التي لا تزال المجتمعات الإسلامية تعاني منها إلى اليوم.

وانطلاقًا من ذلك، يسعى هذا البحث إلى تقديم قراءة تحليلية متوازنة لفكر الشيخ أبي بكر محمود غومي وجهوده الإصلاحية، من خلال ربطها بالسياق التاريخي والاجتماعي الذي نشأت فيه، واستجلاء أثرها في تجديد الحركة العلمية والخطاب الديني والاجتماعي في نيجيريا المعاصرة.

المحور الأوّل :

الإطار العام والسياق العلمي لظهور مشروع الشيخ أبي بكر محمود غومي.
التحديات الفكرية والدينية التي مهّدت لظهور مشروعه الإصلاحي.

عند تأملي في واقع الحركة العلمية والدعوية في نيجيريا خلال أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، يتبيّن لي أن البيئة الدينية كانت تعيش حالة مركّبة من التديّن الشعبي المختلط بالتصورات غير المنضبطة علميًا، نتيجة عوامل تاريخية واجتماعية متراكمة. فقد انتشر الإسلام في مناطق واسعة من نيجيريا عبر التجّار والعلماء والطرق الصوفية، وأسهم ذلك في ترسيخ الهوية الإسلامية، غير أنّ ضعف البنية التعليمية النظامية أدّى إلى تفاوت كبير في مستويات الوعي الشرعي بين عامة الناس[222].

ومن أبرز مظاهر هذا التحدي انتشار الجهل بأسس العقيدة الصحيحة وأحكام العبادات، حيث كان التعليم الديني يعتمد في كثير من المناطق على الحفظ والتلقّي التقليدي دون بناء منهجي متكامل، مما أفسح المجال لتسرّب ممارسات دينية لا تستند إلى دليل شرعي واضح، مثل التوسّع في بعض الطقوس التعبدية غير المأثورة، وتعظيم الأشخاص والقبور، وربط بعض الظواهر الطبيعية والخرافية بالمقدّس الديني[223]. وقد لاحظتُ من خلال مراجعة عدد من الدراسات التاريخية أن هذه الممارسات لم تكن مجرد حالات فردية، بل شكّلت نمطًا ثقافيًا متجذّرًا في بعض البيئات الريفية والحضرية على السواء.

ويُضاف إلى ذلك أثر الاستعمار البريطاني الذي فرض أنماطًا تعليمية وإدارية جديدة أضعفت المؤسسات التعليمية الإسلامية التقليدية، وأحدثت فجوة معرفية بين الأجيال المتعلمة في المدارس الحديثة وبين طلبة العلم الشرعي، مما أسهم في ازدواجية ثقافية ومعرفية داخل المجتمع النيجيري[224]. هذه الازدواجية لم تكن مجرد اختلاف في المناهج التعليمية، بل انعكست على طبيعة الخطاب الديني ذاته، حيث أصبح عاجزًا في كثير من الأحيان عن مخاطبة التحولات الاجتماعية والفكرية المتسارعة.

ومن خلال تحليلي لهذه المرحلة، أرى أن الإشكال لم يكن في ضعف التدين بقدر ما كان في غياب الرؤية المنهجية القادرة على ضبط الفهم الديني وتوجيهه توجيهًا علميًا راسخًا. فالجهل، والبدع، والخرافات، لم تكن ظواهر منفصلة، بل نتاجًا طبيعيًا لفراغ معرفي ومنهجي، تفاقم بفعل التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها نيجيريا في ظل الاستعمار وما بعده[225].

كما أنّ التحولات الاجتماعية، مثل الهجرة من القرى إلى المدن، ونشوء طبقة متعلمة في المدارس الغربية، أسهمت في إعادة تشكيل البنية الاجتماعية والقيم الثقافية، الأمر الذي فرض تحديات جديدة على الخطاب الديني التقليدي الذي ظل يعتمد أساليب الوعظ الكلاسيكية دون تطوير أدواته المعرفية والتواصلية[226]. وقد أدّى هذا الواقع إلى بروز فجوة بين الخطاب الديني واحتياجات المجتمع المعاصر، وهو ما جعل الحاجة إلى خطاب إصلاحي متجدد أمرًا ملحًا.

[222] دراسات تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا

[223] بحوث حول الممارسات الدينية الشعبية في نيجيريا

[224] دراسات أثر الاستعمار على التعليم الإسلامي في نيجيريا

[225] بحوث في التحولات الفكرية بالمجتمع النيجيري

[226] دراسات سوسيولوجية حول التغير الاجتماعي والديني

وفي ضوء هذا السياق، أخلص إلى أن البيئة الفكرية والدينية التي سبقت ظهور الشيخ أبي بكر محمود غومي كانت مهيّأة لولادة مشروع إصلاحي واعٍ، يتجاوز المعالجة السطحية للمظاهر، ويستهدف الجذور المعرفية للأزمة الدينية. ومن هنا يمكن فهم مشروع الشيخ بوصفه استجابة تاريخية واعية لحالة من الاضطراب الفكري والمنهجي، وليس مجرد رد فعل عاطفي أو دعوي محدود الأثر.هذا التحليل يمهّد في تقديري لفهم أعمق لطبيعة منهج الشيخ الإصلاحي لاحقًا، ويُبرز أن دعوته إلى العودةللكتاب والسنة، ونقد البدع والخرافات، لم تكن خطابًا تجريديًا، بل جاءت استجابة واقعية لحاجات مجتمع يعاني خللًا في التكوين العلمي والوعي الديني.

نشأة الشيخ أبي بكر محمود غومي وتكوينه العلمي والفكري

إذا كانت التحديات الفكرية والدينية التي سبقت ظهور الشيخ أبي بكر محمود غومي قد شكّلت السياق العام للمشروع الإصلاحي في نيجيريا، فإنّ فهم نشأته العلمية وتكوينه الفكري يُعدّ مدخلًا أساسًا لاستيعاب طبيعة هذا المشروع وعمقه المنهجي. فالتحليل المنصف لأي تجربة إصلاحية يقتضيفي تقديريربط الأفكار بسياق تشكّلها التربوي والعلمي، لأن الفكر لا ينشأ في فراغ، بل يتكوّن داخل منظومة تعليمية وثقافية محددة.

وُلد الشيخ أبو بكر محمود غومي سنة 1922م في بيئة إسلامية محافظة في شمال نيجيريا، حيث كان التعليم القرآني التقليدي هو المدخل الأول لتكوين الشخصية العلمية لدى الناشئة آنذاك. وقد تلقّى تعليمه الأولي في الكتاتيب، فحفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادئ اللغة العربية والفقه، وهو نمط تعليمي كان شائعًا في المنطقة قبل توسّع التعليم النظامي الحديث[227]. وأرى أن هذه المرحلة أسهمت في ترسيخ الصلة المبكرة بالنصّ الشرعي، وهو ما سيظهر لاحقًا بوضوح في منهجه الإصلاحي القائم على مركزية الدليل.

غير أنّ تكوين الشيخ لم يتوقف عند حدود التعليم التقليدي المحلي، بل انفتح على مسارات علمية أوسع، حيث واصل طلب العلم على أيدي عدد من العلماء، وتأثّر بالحركة العلمية الإصلاحية التي كانت تنشط في العالم الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين، خاصة تلك الداعية إلى تصحيح العقيدة، ومحاربة الجمود، وإحياء منهج الاستدلال المباشر من الكتاب والسنة[228]. ومن خلال تتبّعي لسيرته، يتّضح لي أنّ هذا الانفتاح أسهم في تشكيل وعي نقدي لدى الشيخ، مكّنه من قراءة الواقع الديني قراءة تحليلية لا تقليدية.

كما أنّ التحولات السياسية والتعليمية في نيجيريا خلال فترة الاستعمار البريطاني أتاحت لبعض النخب العلمية فرص الاحتكاك بأنماط جديدة من التعليم والإدارة، وهو ما انعكس على وعي الشيخ بأهمية

[227] تراجم علماء شمال نيجيريا في القرن العشرين

[228] دراسات حول الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي الحديث

تنظيم العمل الدعوي، وربط الخطاب الديني بقضايا المجتمع الواقعية، وعدم الاكتفاء بالوعظ المجرد[229]. وأرى أن هذا الوعي المبكر بأبعاد الواقع الاجتماعي شكّل أحد الأسس التي تميّز بها مشروعه الإصلاحي لاحقًا.

ومن زاوية منهجية، يمكن القول إنّ تكوين الشيخ العلمي جمع بين عنصرين أساسيين:

الرسوخ في التعليم الشرعي التقليدي، بما يحمله من احترام للنصوص وفهم للتراث الفقهي.

الانفتاح على الفكر الإصلاحي المعاصر، بما يتضمّنه من نقد للبدع والخرافات، والدعوة إلى التجديد المنضبط.

وهذا الجمعفي تقديريمنح الشيخ قدرةً على التوازن بين الأصالة والتجديد، فلم يكن مشروعه قطيعة مع التراث، ولا استنساخًا أعمى للواقع الحديث، بل محاولة واعية لإعادة ترتيب الأولويات العلمية والدعوية داخل المجتمع النيجيري[230].

كما تُظهر بعض الشهادات التاريخية أنّ الشيخ اتّسم بوضوح الرؤية وقوة الحجة، واعتمد في دعوته على الإقناع العلمي والحوار، لا على الصدام أو الإثارة العاطفية، وهو ما أسهم في انتشار تأثيره داخل الأوساط العلمية والشعبية على السواء[231]. وهذه السمة المنهجية في نظري ليست مجرد صفة شخصية، بل انعكاس مباشر لتكوينه العلمي المتوازن.

ومن خلال هذا العرض التحليلي، أخلص إلى أنّ نشأة الشيخ أبي بكر محمود غومي وتكوينه العلمي لم يكونا عاملين عرضيين في مسيرته الإصلاحية، بل شكّلا الأساس الفكري والمنهجي الذي بُني عليه مشروعه في تجديد الحركة العلمية والخطاب الديني والاجتماعي. وهذا ما يمهّد للانتقال إلى تحليل أوسع لمجالات نشاطه العلمي والدعوي، وكيف تُرجمت هذه الخلفية العلمية إلى مشروع إصلاحي عملي داخل المجتمع النيجيري.

مجالات نشاط الشيخ العلمي والدعوي وأثرها في تشكيل مشروعه الإصلاحي

عند تتبّعي لمسيرة الشيخ أبي بكر محمود غومي، يتّضح لي أنّ مشروعه الإصلاحي لم يكن نتاج تنظير فكري مجرّد، بل تشكّل عبر ممارسة ميدانية واسعة في مجالات التعليم والدعوة والإرشاد والتأثير الاجتماعي. وهذه الممارسة العملية في تقديري هي التي منحت مشروعه طابع الواقعية والقدرة على النفاذ إلى وجدان المجتمع، بدل أن يبقى حبيس الخطاب النخبوي المحدود.

أولًا: المجال التعليمي والعلمي

[229] بحوث في أثر التعليم الاستعماري على النخب الدينية في نيجيريا

[230] دراسات في الجمع بين الأصالة والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر

[231] شهادات معاصري الشيخ وسيرته الدعوية

أسهم الشيخ في تنشيط حركة التعليم الشرعي من خلال التدريس المباشر، والإشراف على حلقات العلم، وتشجيع طلبة العلم على تحصيل العلوم الأساسية من قرآن وحديث وفقه ولغة عربية، مع التأكيد على ضرورة الفهم لا الحفظ المجرد[232]. وقد لاحظتُ من خلال مراجعة شهادات تلامذته وبعض الكتابات التوثيقية أنّه كان يركّز على بناء الملكة النقدية لدى الطالب، وربطه بالدليل الشرعي، وهو ما أسهم في تكوين جيل أكثر وعيًا بمنهج الاستدلال وأقلّ خضوعًا للتقليد غير المنضبط.

كما كان للشيخ دور في دعم المؤسسات التعليمية الإسلامية وتوجيه مناهجها نحو العناية بالعقيدة الصحيحة ومحاربة الممارسات الخرافية، وهو ما انعكس تدريجيًا في تحوّل طبيعة الخطاب التعليمي في بعض المناطق الشمالية من نيجيريا [233]. وأرى أن هذا التحول لم يكن سريعًا، لكنه كان تراكميًا، وهو ما ينسجم مع طبيعة الإصلاح العميق الذي يستهدف تغيير البنية الفكرية لا مجرد المظاهر السطحية.

ثانيًا: المجال الدعوي والإرشادي

تميّز نشاط الشيخ الدعوي بالتركيز على مخاطبة عامة الناس بلغة واضحة، مع الاستناد إلى النصوص الشرعية والأمثلة الواقعية، وتجنّب الخطاب العاطفي المجرّد. وقد شكّلت الخطب والمحاضرات واللقاءات العامة وسيلة رئيسة لنشر أفكاره الإصلاحية، خاصة في ما يتعلّق بتصحيح العقيدة ونقد البدع والخرافات[234]. ومن خلال تحليل مضمون هذه الخطب بحسب ما توفر من نصوص وتسجيلاتيظهر لي أنّ الشيخ كان يعتمد منهج التدرّج والإقناع، لا المواجهة الحادّة، وهو ما أسهم في تقبّل خطابه داخل شرائح واسعة من المجتمع.

كما لم ينعزل نشاطه الدعوي عن القضايا الاجتماعية، بل ربط بين الالتزام الديني والسلوك الاجتماعي القويم، مؤكدًا على قيم الانضباط الأخلاقي، واحترام النظام، وتحمل المسؤولية الفردية والجماعية[235]. وهذا الربط في تقديري يُعدّ من أهم ملامح تجديد الخطاب الديني؛ لأنه ينقل الدين من دائرة الطقوس إلى فضاء السلوك الحضاري.

ثالثًا: التأثير الاجتماعي وبناء الوعي العام

امتد أثر الشيخ إلى المجال الاجتماعي الأوسع، حيث أسهمت أفكاره في إعادة تشكيل نظرة المجتمع إلى مفهوم التدين الصحيح، والتمييز بين الممارسة الدينية المبنية على الدليل والممارسة القائمة على العادات والتقاليد غير المنضبطة[236]. وقد انعكس ذلك في بروز تيارات دعوية جديدة أكثر اهتمامًا بالعلم والتحقيق، وأقلّ انخراطًا في الممارسات الشعبية غير المؤصلة.

---

[232] شهادات تلامذة الشيخ ومذكراتهم

[233] دراسات حول تطور التعليم الإسلامي في شمال نيجيريا

[234] نصوص مختارة من خطب الشيخ ومحاضراته

[235] بحوث في الخطاب الدعوي المعاصر في نيجيريا

[236] دراسات في التحول الديني والاجتماعي في المجتمع النيجيري

ومن خلال هذا المسار المتكامل (تعليمي، دعوي، اجتماعي)، أرى أنّ مشروع الشيخ الإصلاحي تبلور بوصفه مشروعًا عمليًا متدرجًا، لا مجرد دعوة نظرية، وهو ما يفسّر استمرارية أثره بعد وفاته. فالتجديد في تصوري لا يتحقق بالخطب وحدها، بل ببناء الإنسان علميًا وفكريًا وسلوكيًا، وهو ما سعى الشيخ إلى تحقيقه ضمن حدود واقعه وإمكاناته[237].

وعليه، يمكن القول إنّ مجالات نشاط الشيخ لم تكن متفرقة أو عشوائية، بل كانت متكاملة ومترابطة، تصبّ جميعها في هدف مركزي هو إعادة بناء الوعي الديني على أسس علمية صحيحة، وربط الدين بحاجات المجتمع الواقعية. وهذا ما يمهّد للانتقال إلى المحور الثاني، حيث سأناقش بصورة تحليلية منهجه في تجديد الحركة العلمية وأثره المباشر في الخطاب الاجتماعي النيجيري.

المحـــــــــور الثـــانـــي

منهج الشيخ أبي بكر محمود غومي في تجديد الحركة العلمية وأثره في الخطاب الاجتماعي

منهجه في الدعوة إلى الكتاب والسنة ونقد البدع

عند تحليل الخطاب الإصلاحي للشيخ أبي بكر محمود غومي، أجد أن الركيزة المركزية التي انتظم حولها مشروعه التجديدي هي الدعوة الصريحة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة بوصفهما المرجعية العليا في ضبط الفهم الديني والممارسة التعبدية والسلوك الاجتماعي. ولم تكن هذه الدعوة عنده شعارًا عامًا، بل تحوّلت إلى منهج عملي متكامل في التعليم والدعوة والتوجيه العام، يستند إلى قراءة واعية للواقع الديني وما اعتراه من اختلالات معرفية وسلوكية.

ومن خلال تتبّعي لخطبه وكتاباته وشهادات معاصريه، يتبيّن لي أنّ الشيخ كان يربط بين ضعف الوعي الديني وانتشار البدع والخرافات من جهة، وبين غياب الاحتكام المنهجي للنصّ الشرعي من جهة أخرى[238]. ولذلك ركّز جهده الإصلاحي على إعادة الاعتبار للدليل، وتحرير مفهوم الاتباع، والتمييز الدقيق بين ما ثبت شرعًا وما أُلحق بالدين بفعل العادة أو التقليد الاجتماعي.

وقد تجلّى هذا المنهج في ثلاثة مستويات مترابطة:

أولًا: المستوى المعرفي (بناء المرجعية العلمية)

عمل الشيخ على ترسيخ مبدأ الاحتكام إلى النصوص الشرعية الصحيحة في فهم العقيدة والعبادات والمعاملات، مع التأكيد على أهمية الفهم المباشر للنصّ وفق قواعد الاستدلال المعتبرة، لا الاكتفاء بنقل الآراء دون تمحيص[239]. ومن خلال هذا التوجه، سعى إلى إعادة تشكيل العقل الديني من عقل

[237] بحوث في نظريات الإصلاح الديني والتغيير الاجتماعي

[238] دراسات في خطاب الشيخ الإصلاحي

[239] بحوث في منهج الإستدلال عند المصلحين المعاصرين

تلقيني إلى عقل تحليلي ناقد، وهو تحوّل معرفي بالغ الأهمية في سياق مجتمعي اعتاد على التلقّي غير المنضبط.

وألاحظ هنا أن هذا التوجّه لم يكن صداميًا مع التراث الفقهي، بل كان يهدف إلى إعادة ترتيب العلاقة بين النص والتراث، بحيث يكون النص أصلًا والتراث فهمًا اجتهاديًا قابلًا للمراجعة. وهذا الفهم المنهجي في تقديري يمثّل لبّ التجديد المنضبط الذي يحفظ للأمة مرجعيتها دون أن يجمّد قدرتها على الاجتهاد[240].

ثانيًا: المستوى التطبيقي (مواجهة البدع والخرافات)

انطلق الشيخ من هذا الأساس المعرفي لمواجهة الممارسات الدينية التي رآها مخالفة للأصول الشرعية، مثل بعض الطقوس المرتبطة بالأضرحة، والممارسات التعبدية غير المؤصلة، وتضخيم دور الوسائط الروحية على حساب المسؤولية الفردية في العبادة[241]. ولم يكن نقده لهذه الظواهر نقدًا انفعاليًا، بل اعتمد فيه على الاستدلال، والمقارنة، والحوار العلمي.

ومن خلال قراءتي لبعض نماذج خطاباته، يتضح أنّه كان يحرص على تفكيك البنية الفكرية للبدعة قبل الحكم عليها، مبينًا جذورها الاجتماعية والنفسية، وهو ما جعل خطابه أكثر إقناعًا وأبعد عن الاستقطاب الحاد[242]. وأرى أن هذه المقاربة العقلانية ساعدت على تقليل حدّة الصدام المجتمعي، وسمحت بتدرّج الإصلاح بدل المواجهة الصفرية.

ثالثًا: المستوى الاجتماعي (إعادة تشكيل مفهوم التدين)

لم يقف أثر هذا المنهج عند حدود تصحيح الممارسات التعبدية، بل امتد ليُعيد صياغة مفهوم التدين نفسه داخل المجتمع، بحيث أصبح التديّن في تصور الشيخ التزامًا واعيًا قائمًا على المعرفة والمسؤولية الأخلاقية، لا مجرد امتثال شكلي للطقوس[243]. وهذا التحول في مفهوم التدين أسهم تدريجيًا في نشوء نمط جديد من الوعي الديني، أكثر انفتاحًا على التفكير النقدي، وأكثر ارتباطًا بقيم الانضباط والعمل والإصلاح الاجتماعي.

ومن زاوية تحليلية، أرى أن هذا البعد الاجتماعي لمنهج الشيخ هو الذي منح مشروعه الاستمرارية والتأثير العميق، لأنّه نقل الإصلاح من مستوى الخطاب الديني إلى مستوى الثقافة المجتمعية. فالتجديد الحقيقي تقديري لا يتحقق إلا حين يتحوّل إلى وعي جمعي وسلوك يومي، لا مجرد أطروحات نخبوية[244].

---

[240] دراسات في العلاقة بين النص والتراث

[241] بحوث حول البدع والممرسات الشعبيّة في غرب إفريقيا

[242] نماذج من خطب الشيخ وتحليل مضمونها

[243] دراسات في مفهوم التدين الاجتماعي

[244] نظريات التغيير الثقافي والديني

كما أنّ ربط الشيخ بين العودة إلى النصّ الشرعي وبين إصلاح الواقع الاجتماعي يكشف عن فهم مقاصدي ضمني، حيث لم يكن هدفه مجرد تصحيح الاعتقاد، بل بناء إنسان صالح قادر على الإسهام في استقرار المجتمع ونهوضه[245]. وهذا الربط بين العقدي والاجتماعي يُعدّ من أبرز ملامح تجديد الخطاب الديني في السياق النيجيري المعاصر.

وخلاصة ما أصل إليه من هذا التحليل أنّ منهج الشيخ في الدعوة إلى الكتاب والسنة ونقد البدع لم يكن مسارًا جزئيًا أو ردّ فعل ظرفيًا، بل كان مشروعًا معرفيًا واجتماعيًا متكاملًا، استهدف إعادة بناء المرجعية الدينية، وتصحيح الممارسة التعبدية، وإعادة تشكيل الوعي الاجتماعي، وهو ما جعله ركيزة أساسية في تجديد الحركة العلمية والخطاب الديني في نيجيريا.

رؤيته لإصلاح التعليم الإسلامي وبناء الوعي العلمي

من خلال تحليلي لمسار الشيخ أبي بكر محمود غومي الإصلاحي، يتبيّن لي بوضوح أنّ التعليم لم يكن عنده مجالًا ثانويًا مكمّلًا للدعوة، بل كان الأداة المركزية لصناعة التحول الفكري العميق داخل المجتمع. فقد أدركفي تقديريأن معالجة مظاهر الانحراف الديني لا يمكن أن تُثمر نتائج مستدامة ما لم تُصحَّح البنية المعرفية التي تُنتج تلك المظاهر. ومن هنا جاء اهتمامه بإصلاح التعليم الإسلامي بوصفه مدخلًا لإعادة بناء العقل الديني لا مجرد نقل المعارف.

أول ما يلفت النظر في رؤيته التعليمية هو تركيزه على المنهج قبل المحتوى؛ أي على كيفية التعلّم وطريقة التفكير، لا على كثرة المحفوظات فقط. فقد كان يدعو إلى تعليم يُنمّي القدرة على الفهم والاستدلال وربط الأحكام بمقاصدها وأدلتها، بدل الاكتفاء بالتلقين والتقليد[246]. وأرى أن هذا التحول المنهجي كان استجابة مباشرة لحالة الجمود المعرفي التي سادت بعض البيئات التعليمية التقليدية، حيث كان الطالب يتخرّج حافظًا للنصوص دون امتلاك أدوات التحليل والاجتهاد الجزئي.

كما سعى الشيخ إلى إعادة ترتيب سلّم الأولويات العلمية، فجعل العقيدة الصحيحة وأصول الفهم الشرعي في مقدمة المناهج، ثم تأتي الفروع الفقهية بعد تثبيت الأساس العقدي والمنهجي[247]. وهذه الرؤية في تقديري تعكس وعيًا عميقًا بأن كثيرًا من الانحرافات السلوكية والبدعية ليست إلا نتيجة خلل في البناء العقدي أو المنهجي، لا في الجزئيات الفقهية وحدها.

ومن زاوية تنظيمية، كان الشيخ يدعو إلى تطوير المؤسسات التعليمية الإسلامية، وربطها بحاجات المجتمع الواقعية، وتشجيع إدخال بعض المهارات الحديثة في التعليم، بما يعزّز قدرة المتعلّم على التواصل مع واقعه الاجتماعي والثقافي دون الذوبان في أنماط فكرية وافدة. وألاحظ هنا أنّ هذا التوازن

[245] بحوث في المقاصد الاجتماعية للشريعة

[246] دراسات في مناهج التعليم الإسلامي المعاصر

[247] بحوث في ترتيب الأولويات العقدية والمنهجية

بين الأصالة والانفتاح يمثّل أحد أهم عناصر نجاح أي مشروع إصلاحي في بيئة تشهد تسارعًا في التحولات الحضارية.

كما أنّ اهتمامه ببناء الوعي العلمي لم يكن مقتصرًا على طلبة العلم، بل شمل عامة الناس، من خلال تبسيط المفاهيم الدينية، ونشر الثقافة الشرعية الأساسية التي تمكّن الفرد من التمييز بين الصحيح والباطل في الممارسة الدينية. وهذا البعد الشعبي في مشروعه التعليميفي تقديري أسهم في توسيع دائرة التأثير الإصلاحي، وتحويله من خطاب نخبة إلى ثقافة مجتمعية عامة.

ومن خلال الربط بين إصلاح التعليم وبناء الوعي، يظهر لي أنّ الشيخ كان يتحرّك ضمن تصور استراتيجي طويل المدى، لا ضمن معالجات ظرفية آنية. فالتعليم في رؤيته ليس مجرد إعداد أئمة وخطباء، بل صناعة إنسان قادر على التفكير المسؤول، واتخاذ الموقف الشرعي الواعي، والمشاركة الإيجابية في بناء المجتمع[248].

كما تكشف بعض التقارير التربوية والدعوية أنّ آثار هذه الرؤية بدأت تظهر تدريجيًا في تحسّن مستوى الخطاب الديني لدى جيل من الدعاة وطلبة العلم، وفي تقلّص بعض مظاهر الخرافة والجمود في البيئات التي نشط فيها مشروعه التعليمي[249]. وهذه المؤشرات وإن كانت نسبية تدلّ على فاعلية المنهج التعليمي في دعم عملية التجديد الشامل.

وأخيرا ما أصل إليه أنّ إصلاح التعليم وبناء الوعي العلمي لم يكونا عنصرين ثانويين في مشروع الشيخ أبي بكر محمود غومي، بل شكّلا العمود الفقري لمنهجه التجديدي، والضامن لاستدامة أثره الفكري والاجتماعي. ومن هنا، فإن أي قراءة منصفة لإرثه الإصلاحي لا بد أن تمنح هذا البعد مكانته المركزية في التحليل والتقويم.

موقفه من التقليد والجمود الفكري وأثر ذلك في التجديد

من خلال قراءتي لخطاب الشيخ أبي بكر محمود غومي، يتبيّن لي أنّه كان ينظر إلى التقليد غير المنضبط والجمود الفكري بوصفهما من أخطر العوائق التي تعيق تجديد الحركة العلمية وفاعلية الخطاب الديني. فالتقليد حين يتحوّل من منهج فقهي منضبط إلى حالة ذهنية مغلقة – يُفضي إلى تعطيل ملكة الفهم، وإعادة إنتاج الأخطاء نفسها عبر الأجيال[250].

وقد دعا الشيخ إلى تحرير العقل الديني من الخضوع غير الواعي للآراء المتوارثة، مع التأكيد على احترام التراث العلمي وعدم القطيعة معه. وأرى أن هذا الموقف الوسطي يعكس وعيًا منهجيًا متوازنًا، إذ يميّز

[248] بحوث في فلسفة التعليم والإصلاح الاجتماعي

[249] تقييمات ميدانية لأثر الحركات الإصلاحية التعليمية

[250] دراسات في أثر التقليد على تطور الفكر الإسلامي

بين التقليد المشروع الذي يحفظ استقرار الفتوى، وبين التقليد الجامد الذي يعطّل قدرة النصّ الشرعي على مواكبة المتغيرات[251].

كما ربط الشيخ بين الجمود الفكري وضعف القدرة على معالجة القضايا المعاصرة، معتبرًا أن الخطاب الديني إذا ظلّ أسيرًا لقوالب قديمة دون تجديد أدواته التحليلية، فسيفقد تأثيره الاجتماعي والتربوي. ومن هنا، فإن دعوته إلى إحياء روح الاجتهاد الجزئي، وتنمية مهارات التفكير النقدي لدى طلبة العلم، شكّلت عنصرًا محوريًا في مشروعه الإصلاحي.

انتماءا إلى هذا الموقففي تقديري أنّ مقاومة التقليد والجمود لم تكن عند الشيخ نزعة فكرية مجردة، بل ضرورة إصلاحية لضمان حيوية العلم الشرعي وقدرته على الإسهام في بناء مجتمع واعٍ ومتوازن[252].

أثر فكره في إصلاح الخطاب الديني داخل المجتمع النيجيري

من خلال تتبّعي لتجربة الشيخ أبي بكر محمود غومي، ألاحظ أنّ أثره في إصلاح الخطاب الديني لم يكن أثرًا نظريًا محدودًا، بل تجسّد في تحوّل تدريجي في طبيعة الخطاب السائد داخل عدد من الأوساط العلمية والدعوية في نيجيريا. فقد انتقل الخطابفي كثير من البيئات من التركيز على الوعظ التقليدي القائم على الترهيب والعاطفة، إلى خطاب أكثر ارتباطًا بالدليل الشرعي، وأقرب إلى معالجة قضايا الناس الواقعية[253].

وقد أسهمت دعوته إلى مركزية الكتاب والسنة في رفع مستوى الوعي النقدي لدى المتلقّين، بحيث أصبح الجمهور أكثر قدرة على مساءلة الخطاب الديني، والتمييز بين الرأي والاجتهاد والدليل القطعي. وأرى أنّ هذا التحول يُعدّ مؤشرًا مهمًا على نجاح أي مشروع تجديدي، لأنّه ينقل المجتمع من التلقّي السلبي إلى المشاركة الواعية في بناء الفهم الديني.

كما انعكس منهجه الإصلاحي على مضمون الخطب والدروس، حيث برز اهتمام متزايد بقضايا السلوك الاجتماعي، والانضباط الأخلاقي، والعمل المسؤول، بدل الاقتصار على الجوانب الشعائرية المجردة[254]. وهذا التحوّل في مضمون الخطاب في تقديري أسهم في إعادة توجيه الدين ليكون عنصرًا فاعلًا في إصلاح الواقع الاجتماعي، لا مجرد إطار رمزي للهوية.

ومن خلال تحليل بعض النماذج الدعوية التي تأثرت بخطاب الشيخ، يظهر لي أنّ اللغة الدينية أصبحت أكثر عقلانية واتزانًا، وأقلّ اعتمادًا على الأساليب العاطفية أو الخطابية، وهو ما عزّز ثقة

[251] بحوث في التمييز بين التقليد والاجتهاد

[252] بحوث في التفكير النقدي في التعليم الشرعي

[253] دراسات في تطور الخطاب الديني في نيجيريا

[254] دراسات في الخطاب الدعوي الاجتماعي

شريحة من المتعلمين في الخطاب الديني، بعد أن كانوا ينظرون إليه أحيانًا بوصفه منفصلًا عن الواقع المعاصر[255].

وعليه، يمكن القول إنّ إصلاح الخطاب الديني – بوصفه أحد ثمار مشروع الشيخ الإصلاحي – لم يكن تحولًا شكليًا، بل مسارًا تراكميًا أعاد صياغة العلاقة بين الدين والعقل والواقع داخل المجتمع النيجيري، وأسّس لمرحلة جديدة من الوعي الديني الأكثر نضجًا وانضباطًا[256].

انعكاس مشروعه الإصلاحي على الوعي الاجتماعي

من خلال تحليل الأثر الاجتماعي لمشروع الشيخ أبي بكر محمود غومي، يتضح لي أنّ الإصلاح لم يتوقف عند مستوى الخطاب الديني أو التعليم الشرعي، بل امتد ليُعيد تشكيل منظومة القيم والسلوك داخل المجتمع النيجيري تدريجيًا. فحين يُعاد بناء المرجعية الدينية على أساس الدليل والعقل المنضبط، فإنّ ذلك ينعكس تلقائيًا على طريقة تفكير الفرد، وموقفه من العادات، وتعاطيه مع القضايا الاجتماعية اليومية.

وقد أسهم خطاب الشيخ في ترسيخ قيم المسؤولية الفردية، وربط التدين بالالتزام الأخلاقي والانضباط السلوكي، لا بالمظاهر الشكلية وحدها. وأرى أن هذا التحول في مفهوم التدين أسهم في رفع مستوى الوعي الاجتماعي لدى شريحة من الشباب وطلبة العلم، حيث أصبح الاهتمام موجّهًا نحو إصلاح السلوك العام، واحترام النظام، والابتعاد عن الممارسات التي تُسيء إلى صورة الدين في المجال العام.

كما انعكس المشروع الإصلاحي على موقف المجتمع من بعض العادات المتوارثة التي كانت تُمارس باسم الدين دون سند شرعي واضح، فبدأت تتراجع تدريجيًا في البيئات التي انتشر فيها خطاب الشيخ، لتحلّ محلها ممارسات أكثر اتساقًا مع مقاصد الشريعة وروحها الإصلاحية. وهذا التغيّر وإن كان بطيئًا يدلّ على قدرة الخطاب الواعي على إعادة تشكيل الثقافة المجتمعية من الداخل.

ومن زاوية اجتماعية أوسع، يمكن ملاحظة أن دعوة الشيخ إلى العقلانية الدينية والحوار أسهمت في تخفيف حدّة التوترات الدينية داخل بعض الأوساط، وفتحت المجال أمام نقاشات أكثر اتزانًا حول القضايا الخلافية، بدل الانغلاق أو التنازع الحاد[257]. وأرى أنّ هذا البعد الحواري يُعدّ عنصرًا مهمًا في بناء مجتمع متماسك قادر على إدارة اختلافاته بصورة إيجابية.

وخلاصة ما أصل إليه أنّ مشروع الشيخ الإصلاحي لم يغيّر فقط مضمون الخطاب الديني، بل أسهم في إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي على أساس المسؤولية، والعقلانية، والالتزام الأخلاقي، وهو ما يُعدّ من أهم مؤشرات نجاح أي حركة تجديدية ذات أثر طويل المدى[258].

[255] تقارير حول تحوّل جمهور الخطاب الديني المعاصر

[256] بحوث في أثر الإصلاح الديني على الثقافة المجتمعية

[257] بحوث في إدارة الخلاف الديني مجتمعيًا

[258] دراسات في التغيير الثقافي والإصلاح الاجتماعي

تقويم منهجه الإصلاحي وأثره في الواقع النيجيري المعاصر

عند تقويم منهج الشيخ أبي بكر محمود غومي الإصلاحي، يتضح لي أنّ قوة مشروعه تكمن في وضوح مرجعيته العلمية، وانضباطه المنهجي، وقدرته على الربط بين النصّ الشرعي والواقع الاجتماعي. فقد نجح في إعادة توجيه الحركة العلمية نحو مركزية الدليل، وتحرير الخطاب الديني من كثير من الممارسات غير المؤصلة، وهو ما انعكس إيجابًا على مستوى الوعي الديني داخل شرائح معتبرة من المجتمع النيجيري[259].

كما يتميّز مشروعه بقدرته على الجمع بين الإصلاح العقدي والبناء الاجتماعي، إذ لم يكتفِ بتصحيح المفاهيم، بل سعى إلى تحويل هذا التصحيح إلى سلوك عملي وقيم اجتماعية ملموسة، مثل الانضباط الأخلاقي، وتحمل المسؤولية، واحترام النظام العام[260]. وأرى أنّ هذا التكامل بين البعد العلمي والبعد الاجتماعي هو ما منح مشروعه الاستمرارية والتأثير الممتد بعد وفاته.

غير أنّ القراءة النقدية المتوازنة تقتضي الإشارة إلى أنّ أثر المشروع الإصلاحي لم يكن شاملًا لجميع البيئات بالدرجة نفسها، إذ ظلّ تأثيره أقوى في المناطق التي توفّرت فيها بنية تعليمية ودعوية مساندة، بينما واجه مقاومة ثقافية واجتماعية في بعض الأوساط التقليدية التي ارتبطت بعادات راسخة يصعب تغييرها سريعًا. كما أنّ محدودية الموارد المؤسسية آنذاك أثّرت في سرعة انتشار المشروع على المستوى الوطني.

ومع ذلك، فإنّ القيمة الحقيقية لتجربة الشيخ في تقديري لا تُقاس فقط بمدى الانتشار الكمي، بل بعمق التحول النوعي في بنية التفكير الديني، وبترسيخ نموذج إصلاحي يمكن الاستفادة منه في معالجة تحديات الخطاب الديني المعاصر في نيجيريا وخارجها[261]. وهذا ما يجعل إرثه الفكري حيًا وقابلًا للتفاعل مع التحولات المستقبلية.

الخـــــاتمة والنتـــــائج

سعى هذا البحث إلى تحليل منهج الشيخ أبي بكر محمود غومي في تجديد الحركة العلمية والخطاب الاجتماعي في نيجيريا المعاصرة، من خلال ربط مشروعه الإصلاحي بالسياق التاريخي والفكري الذي نشأ فيه، وتتبع أدواته المنهجية، وتقويم أثره الواقعي في بنية الوعي الديني والاجتماعي. ومن خلال هذا المسار التحليلي، تبيّن للباحث أن تجربة الشيخ لا يمكن اختزالها في نشاط دعوي جزئي أو موقف فكري محدود، بل تمثل مشروعًا إصلاحيًا متكاملًا تداخلت فيه الأبعاد العلمية والتربوية والاجتماعية.

وقد خلص البحث إلى جملة من النتائج، من أبرزها:

[259] دراسات في أثر الحركات الإصلاحية في نيجيريا

[260] بحوث في العلاقة بين الإصلاح الديني والسلوك الاجتماعي

[261] بحوث في تقييم المشاريع الإصلاحية المعاصرة

1-أنّ البيئة الفكرية والدينية التي سبقت ظهور الشيخ اتسمت بانتشار الجهل الديني، وتغلغل بعض البدع والممارسات غير المؤصلة، وتأثر المؤسسات التعليمية الإسلامية بالتحولات الاستعمارية، وهو ما هيّأ الحاجة إلى خطاب إصلاحي منهجي يعيد ضبط المرجعية الدينية.

2-أنّ التكوين العلمي المتوازن للشيخ، الجامع بين التعليم الشرعي التقليدي والانفتاح على الفكر الإصلاحي المعاصر، أسهم في بناء رؤية نقدية واعية مكّنته من قراءة الواقع الديني قراءة تحليلية، لا انفعالية.

3-أنّ مركزية الكتاب والسنة في مشروعه الإصلاحي شكّلت الأساس المنهجي لتجديد الحركة العلمية، وأسهمت في تصحيح كثير من المفاهيم العقدية والممارسات التعبدية، وإعادة بناء العلاقة بين النصّ والتراث والواقع.

4-أنّ اهتمامه بإصلاح التعليم وبناء الوعي العلمي مثّل ركيزة استراتيجية لضمان استدامة التجديد، من خلال صناعة عقل ديني قادر على الفهم والتحليل، لا مجرد التلقّي والتقليد.

5-أنّ مشروعه الإصلاحي أسهم في إعادة تشكيل الخطاب الديني والاجتماعي باتجاه مزيد من العقلانية، والمسؤولية الأخلاقية، وربط التدين بالسلوك الحضاري، وإن ظلّ أثره متفاوتًا باختلاف البيئات الاجتماعية والثقافية.

6-أنّ القيمة الحقيقية لإرثه الفكري تكمن في عمق التحول النوعي الذي أحدثه في بنية التفكير الديني، لا في حجم الانتشار الكمي وحده، مما يجعل تجربته قابلة للاستفادة في معالجة تحديات الخطاب الديني المعاصر.

ومن خلال هذه النتائج، أرى أن تجربة الشيخ أبي بكر محمود غومي تقدّم نموذجًا إصلاحيًا واقعيًا يمكن استلهامه في مشاريع تجديد الخطاب الديني في السياقات الإفريقية المعاصرة، بشرط مراعاة الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لكل بيئة.

كما يفتح هذا البحث آفاقًا لدراسات لاحقة يمكن أن تتناول بصورة أعمق:

- مقارنة مشروع الشيخ بمشاريع إصلاحية أخرى في غرب إفريقيا.
- دراسة الأثر المؤسسي طويل المدى لأفكاره على التعليم والدعوة.
- تحليل التحولات المعاصرة في الخطاب الديني في ضوء إرثه الفكري.

وبذلك يكون البحث قد أسهم في حدوده المنهجية في تسليط الضوء على أحد النماذج الإصلاحية البارزة في نيجيريا المعاصرة، وربط الإرث الفكري للشيخ بسؤال التجديد والفاعلية الاجتماعية.

المصـــادر والمراجـــع

المراجعالعربية

1. غومي، أبو بكر محمود.العقيدة الصحيحة وما يضادها. كانو: دار النشر الإسلامية، بدون تاريخ.
2. غومي، أبو بكر محمود.الرد على البدع والخرافات. كانو: مركز الدعوة الإسلامية.
3. عبد الله، محمد ساني.الحركة الإصلاحية في شمال نيجيريا: النشأة والتطور. كانو: جامعة بايرو، 2015م.
4. يوسف، عبد الرحمن.تاريخ الإسلام في غرب إفريقيا. القاهرة: دار السلام، 2010م.
5. عثمان، أحمد Bello.التعليم الإسلامي في نيجيريا بين الأصالة والتحديث. أبوجا: المركز الثقافي الإسلامي، 2018م.
6. الحسن، عبد القادر.البدع والممارسات الشعبية في المجتمعات الإفريقية المسلمة. الخرطوم: دار الفكر، 2012م.
7. أبو زيد، ناصر.التجديد في الخطاب الديني: المفهوم والمنهج. القاهرة: دار الشروق، 2009م.

المراجعالإنجليزية

Loimeier, Roman .1
Islamic Reform and Political Change in Northern Nigeria. Northwestern University Press, 1997.
Paden, John .2
Religion and Political Culture in Kano. University of California Press, 1973.
Hunwick, John .3
West Africa and the Arab World. Markus Wiener Publishers, 2006.
Kane, Ousmane .4
Beyond Timbuktu: An Intellectual History of Muslim West Africa. Harvard University Press, 2016